نوادر المخطوطات

المجموعة الأولى

١ — الرسالة المصرية ، لأبى الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسى المتوفى سنة ٥٢٨

٢ — كتاب المردفات من قريش ، لأبى الحسن على بن محمد المدائنى المتوفى سنة ٢٢٥

٣ — كتاب من نسب إلى أمه من الشعراء ، صنعة محمد بن حبيب المتوفى سنة ٢٤٥

٤ — تحفة الأبيه ، فيمن نسب إلى غير أبيه ، لمجد الدين محمد بن يعقوب بن محمد الفيروزابادى المتوفى سنة ٨١٧

بسم الله الرحمن الرحيم

تقـــديم

هـذه المكتبة العربيـة التى كانت منار الثقافة الإنسانية دهراً طويلا ، ولا تزال تشعّ من نورها وضيائها على جنبات الدنيا ، وتتغلغل تغلغلا عميقاً فى زوايا الحضارات على شتى أصولها . هذه المكتبة لم تلق بعد ما تستوجب من عناية ، ولا ماتستحق من خدمة واجبة . وكنت وما أزال أتحدث بجهد إخواننا فى العلم المستشرقين ، الذين بادروا إلى إنقاذ الكنز ، فكان لهم بذلك فضل التنبيه .

وكان مما صنع الله لهـذه الكنوز أن قيّض لإثارتها ، ونفضِ غبارها ، طائفةً ممن نصبوا أنفسهم لهذا العمل المجهد الشاق ، يبغون بذلك الإسهامَ فى نشر العلم ، وفى بيان أمجاد الغابرين من الأجداد ، وتوطيد الصلة بين علمهم الأصيل ومعارفنا المستحدثة . وأذكر فى طليعة هؤلاء الناشرين الرجل العبقرى المرحوم «السيد محمد أمين الخانجى» ، الذى أمد المكتبة العربية بعدد هائل من المطبوعات العربية التى لو لم تمتد يده إليها لبقيت إلى الآن مطمورة فى النسيان . وأذكر معه العلامة المحقق الجليل المغفور له «أحمد زكى باشا» ، وهو أول عربى أشاعَ أساليب النشر الحديثة ، ونُظم الطبع الجديدة ، فى كتبنا هذه العربية ؛ فلهما من الله الرحمة والجزاء لقاء ماقدما من فضل عظيم .

وإنه لما يثلج الصدر أن تتجه جامعاتنا المصرية اتجاهاً جديداً إزاء طلابها المتقدمين للإجازات العلمية الفائقة ، إذ توجههم إلى أن يتقدموا مع رسالاتهم العلمية تحقيقاً لمخطوط يمت بالصلة إلى موضوع الرسالة . وعسى أن يأتى اليوم الذى يكون فيه هذا الأمر ضريبة علمية لابد من أدائها .

وكان مما صنع لىَ الله أن ألفيت نفسى فى أطراف ميدان النشر العلمى أكافح فيه والسلاح ضعيف ، فما أزال أجمع سلاحًا إلى سلاح ، وأقتحم الصعاب إثر

الصعاب ، وأنا فيما بين ذلك أستلهم الله العون والتوفيق ، فيمدنى بسَيْب منه وفيض كريم ، وكلما ظننت أنى قد رويت غلة النفس زاد مابى من ظمأ إلى مزاولة هذا الجهاد الصادق .

وقد رأيت أن همة الناشرين المحققين تتجه فى أغلب ماتتجه إلى المخطوطات ذات الشهرة الظاهرة ، وإلى ما جلَّ مقداره من كتب السلف ، مُغْفلين فى أكثر الأمر هذه الرسائل الصغيرة . وقديماً كان الناس كذلك ، إنما يروقهم ما يملأ أبصارهم ، وما يروعهم بجسامته وعِظَمه ، ورب أسد مَزير فى أثواب رجل نحيف !

فصحَّ منى العزم على أن أكشف عن طائفة من هـذه الـكتب الصغيرة غطاءها ، وأقدم منها إلى جمهرة الباحثين مادة نادرة . وأن أجعل هذا فى مجموعات متتالية متسلسلة الأرقام والصفحات . وسيتكون من كل أربع مجموعات مجلد يقع فى نحو خمسمائة صفحة ، تنتهى بفهرس عام لما فيها من الرسائل .

هذا . وليس يفوتنى أن أذكر أن هـذا العمل قد لقى منذ اللحظة الأولى فى التفكير فيه ، ترحيباً بالغاً من رجال العلم ، ووجدت فاتحةَ معاونةٍ جميلة من الأصدقاء الغُيُر ، إذ تكرم الأخ العلامة الشيخ سليمان بن عبد الرحمن الصنيع المـكىّ فبادر بإرسال مخطوط نادر نفيس نسـخه بقلمه مقابلا على أصله ، هو : « كتاب أسماء جبال تهامة وسكانها وما فيها من القرى وما ينبت عليها من الأشجار ، وما فيها من المياه » لعرام بن الأصبغ السُّلَمىّ . وسيظهر إن شاء الله فى المجموعة الثانية من نوادر المخطوطات .

وإنى إذ أسجل لهذا الصديق شكراً عظيما على ما أسدى ـ لمرتقب أن أجد لهذا العمل التعاونى صدًى عند من تضم مكتباتهم أمثال هذه الـكتب الصغيرة النادرة .

والله أسأل العونَ ، ولزام الصواب ، وصالحَ التوفيق ؟

القاهرة فى ١٢ ربيع الأول سنة ١٣٧٠ عبد السلام محمد هارون

الرسالة المصرية

لأبى الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسى

٤٧٠ — ٥٢٨

مقـــدمة

نزح كثيرون من رجال الأندلس إلى الشرق طلباً للعلم أو المال أو الجاه، أو رغبة فى أداء فريضة الحج، وكان من أولئك النازحين إلى مصر رجلٌ جَمَع إلى الأدب الحكمة، وإلى الطب التنجيمَ والموسيقى والرياضةَ، والبراعة فى علم الحيَل. هذا الرجل هو أبو الصَّلت أُمية بن عبد العزيز بن أبى الصلت، المولود فى مدينة دانية، من بلاد الأندلس سنة ٤٧٠ هـ.

قدِمَ أبو الصلت إلى الإسكندرية ومعه أمُّه - فيما يروى ابن خَلِّكان - سنة ٤٨٧، أى فى أيام الخليفة الفاطمى المستنصر بالله أبى تميم معدّ بن الظاهر بالله علىّ بن الحاكم بأمر الله، ووزيرُه إذ ذاك والقائمُ بأمر دولته الأفضل شاهنشاه ابن أمير الجيوش بدر الجمالى الأرمَنى.

وكان يأمُل أبو الصلت من وراء رحلته هذه بسطةً فى العيش، وثَرَاء من المال، كما أشار إلى ذلك فى صدر رسالته. ويبدو أنه ظل دهراً خاملا يتحيَّن الفرص، إلى أن أتيح له أن يتَّصل بأحد المقرَّبين إلى الوزير الأفضل[1]، فى أيام الخليفة الآمر[2]، وذلك الرجل هو تاج المعالى مختار[3]، فخدمه بصناعَتَىِ الطبّ

---

(١) بدأت وزارة الأفضل للمستنصر الفاطمى سنة ٤٨٧ بعد وفاة أبيه بدر الجمالى، ثم وزر للمستعلى بالله أحمد سنة ٤٨٨، ثم للآمر بأحكام الله سنة ٤٩٦. وقد استبد بهؤلاء الخلفاء جميعاً إلى أن تمكن منه الآمر ودبر مقتله، فقتل سنة ٥١٥. النجوم الزاهرة (٥ : ٢٢٢).

(٢) هو الآمر بأحكام الله منصور بن المستعلى بالله أحمد بن المستنصر بالله. ولد فى سنة ٤٩٠ واستخلف وله خمس سنين، وقيل سنة ٥٢٤. انظر النجوم الزاهرة (٥ : ١٧) والخطط المقريزية عند ذكر «الجامع الأقمر».

(٣) معجم الأدباء (٧ : ٥٤).

والتنجيم، فأعجب به، ووصفه بحضرة الأفضل وأثنى عليه، وكان كاتبُ الأفضل ينفَس عليه ذلك، ويخشى بأس تاج المعالى، وحدث أن تتابعت من تاج المعالى السقطات فأدى ذلك إلى أن يقبض عليه الأفضل ويعتقله، فيجد كاتب الأفضل الفرصة سانحة للقضاء على أبى الصلت، فيختلق له ما يدفع الأفضل إلى أن يلقى به فى سجن المعونة[1] بمصر، مدة ثلاث سنين وشهر[2]، بعد الذى دبَّج فيه من المدائح والشعر[3].

ويروى ابن أبى أصيبعة فى طبقات الأطباء، أن دخول أبى الصلت إلى مصر كان فى حدود سنة ٥١٠ هـ، وأنه حبس فى الإسكندرية فى خلافة الآمر بأحكام الله ووزارة الأفضل[4]. فإن صحت هذه الرواية كانت سنداً فى أن أبا الصلت ورد مرة أخرى بعد وفاة ولى نعمته أبى الطاهر يحيى بن تميم بن المعز ابن باديس[5] المتوفى سنة ٥٠٩، وهى سنة خروجه من مصر.

---

(١) ذكر المقريزى هذا السجن عند ذكر الدار المأمونية المنسوبة إلى المأمون البطائحى. قال: «وكان بجوار الدار المأمونية حبس المعونة». ثم قال: «ولم يزل هذا الموضع سجناً مدة الدولة الفاطمية، ومدة دولة بنى أيوب، إلى أن عمره الملك منصور قلاوون قيسارية أسكن فيها العنبرانيين فى سنة ٦٨٠». وقال: «وكان حبس المعونة هذا يحبس فيه أرباب الجرائم ... وأما الأمراء والأعيان فيسجنون بخزانة البنود». والدار المأمونية هى المعروفة بالمدرسة السيوفية.

(٢) وقد روى المقرى فى نفح الطيب (١ : ٥٣٠ ليدن) رواية عجيبة: أن عمر أبى الصلت ٦٠ سنة، منها ٢٠ فى أشبيلية، و ٢٠ فى أفريقية عند ملوكها الصنهاجيين، و ٢٠ فى مصر محبوساً فى خزانة الكتب.

(٣) انظر بعضها عند ابن أبى أصيبعة (٢ : ٥٣، ٥٦).

(٤) ذكر ابن أبى أصيبعة سبب حبسه فى الإسكندرية: أن الأفضل طلب إليه أن يعمل الحيلة فى رفع مركب غارق فى البحر، فاجتهد أبو الصلت، ولكنه حينما قارب النجاح خانه جده، فهبط المركب إلى قعر البحر، بعد ما كبد الدولة خسائر فادحة، فحبسه الأفضل لذلك.

(٥) ملك أبو الطاهر يحيى بن تميم، المغرب سنة ٥٠١ واستقر فى ملكه إلى أن توفى سنة ٥٠٩. انظر تاريخ طرابلس الغرب لابن غلبون (ص ٣٩ — ٤٠).

ضاق أبو الصلت ذرعا بمصر ، وما لقى فيها من الخيبة والعنت . قال القفطى[1] :

« ودخل مصر فى أيام أفضلها فلم ينل منه إفضالا ، وقصده للنّيل فلم يجد لديه نوالا » . فحينئذ شد رحاله إلى المغرب فى سنة ٥٠٦ ، واستمداد صلته بحضرة أبى الطاهر يحيى بن تميم بن باديس ، الذى وضع له هـذه « الرسالة المصرية » يصف له فيها ما عاينه فى مصر وما عاناه ، وتناول فى هذه الرسالة القيمة :

١ ـ الوصف البلدانى للديار المصرية ونيلها .

٢ ـ ثم أخذ فى تصوير جمال ربوعها ومغانيها تارة بالشعر وأخرى بالنثر .

٣ ـ وعقّب على ذلك بالكلام فى سكانها وأجناسهم ومذاهبهم وأخلاقهم وعقائدهم ، منذ عهد الفراعنة إلى ظهور الإسلام .

٤ ـ وتحدث بعد ذلك فيما تحتويه من الآثار العجيبة ، كالهرمين والبرابى .

٥ ـ وذكر عواصم مصر فى القديم والحديث .

٦ ـ وقدامى العلماء من اليونان والروم ، مستطرداً بذلك إلى ندرة من لقيه بمصر من المشتغلين بالعلم والحكمة والطب .

٧ ـ وعجب من جهل من لقى بها من الأطباء ، ونوه بفضل بعض الأطباء البارعين .

٨ ـ وتحدث فى ولوع المصريين بأحكام النجوم وكثرة استعمالهم لها ، وأورد فى ذلك نوادر وطرائف .

٩ ـ ثم عرّج على ذكر من لقيه بها من الأدباء والظرفاء .

فهذه الرسالة تضرب بأسباب إلى علوم وفنون شتى ، وتعدّ اليوم كما عدت

(١) انظر أخبار العلماء للقفطى (ص ٥٧) طبع السعادة .

بالأمس ، وثيقة يرجع إليها البلدانى ، والمؤرخ ، وباحث الآثار ، والاجتماعى ، والحكيم ، والطبيب ، والمنجم ، والأديب .

* * *

هذه الرسالة الصغيرةُ الحجم العظيمة القدر كانت متعارَفة متداوَلةً بين كبار العلماء والمؤرِّخين ، ثم أضحت نادرةً مجهولة ، إلى أن تمكَّن المغفور له العلامة أحمد تيمور باشا ـ طيب الله ثراه ـ من اقتنائها فى مكتبته الخاصة ، وهى برقم ٦٠١ أدب . وعلى هذه النسخة الوحيدة فى العالم ـ كما يتَّضح من مراجعة فهارس بروكلمان[1] ـ أعتمِدُ فى نشر هذه الرسالة الفريدة ، التى أورد طرفاً منها ياقوت فى « إرشاد الأريب » ، والعماد فى « الخريدة » ، والقفطى فى « إخبار العلماء » ، وابن أبى أُصيبعة فى « عيون الأنباء » ، والأسعد بن مماتى فى « قوانين الدولة » ، والمقَّرى فى « نفح الطيب » ، والمقريزى فى « الخطط » ، والأدفوى فى « الطالع السعيد » ، والسُّيوطى فى « حسن المحاضرة » ، كما سيتضح لك عند تحقيق نصوصها .

ولأبى الصلت غير الرسالة المصرية « كتاب الحديقة » على أسلوب « يتيمة الدهر » للثعالبى ، وقد نقل منه العماد فى « الخريدة » . وله أيضاً « الأدوية المفردة » وهو محفوظ فى مكتبة بودليان ؛ و « رسالة فى العمل بالأسطرلاب » فى برلين وليدن وبودليان ، و « تقويم الذهن » فى المنطق ، بمكتبة الإسكريال ، و « أوراق من كتاب فى الفلك » بالإسكريال ، و « كتاب فى المعانى المختلفة للفظة نقطة » فى مكتبة ليدن ، و « قصيدة » بمكتبة برلين .

---

(١) انظر بروكلمان (١ : ٤٨٦ — ٤٨٧) وملحقه الأول (ص ٨٨٩) . على أننى عثرت فيما بعد على قطعة من الرسالة المصرية فى دار الكتب المصرية برقم ٣٥٤ تاريخ ، سأنبه على موضع بدئها ونهايتها فى الحواشى .

وقد صنف معظم هـذه الـكتب وهو فى اعتقال الأفضل بمصر ، كما نص ابن خلكان .

* * *

انتهت أيام أبى الصلت فى المهدية ، وقد اختلف المؤرخون فى سنة وفاته ، فقيل سنة ٥٢٠ وقيل سنة ٥٢٨[1] .

وإليك الرسالة :

---

(١) انظر ترجمته عند ياقوت (٧ : ٥٢) وابن خلـكان (١ : ٨٠) والقفطى (٥٧) والمقرى (١ : ٥٢٠) وابن أبى أصيبعة (٢ : ٥٢) .

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخ أبو الصلت أمية بن عبد العزيز بن أبي الصّلت رحمه الله تعالى :

كنت إبانَ عصرُ الشباب مونقٌ ، وغصن الصِّبا مورق .

إذ لِمَّتى مســـودةٌ ولماء وجهى رونق (١)

ممن سامحه الدهرُ بغفلة من غفلاته ، وتجافَى له عن غفوةٍ من غفَواته ، فعاش آمِنَ السِّرْب، سائغَ الشِّرب ، لا يتفرّغ من أدبٍ يرود رياضه ، ويرِدُ حياضَه ، إلا إلى طربٍ يعمُرَ نِيدانَه ، ويسحب ذيولَه وأردانه . ثم تلوَّن فقلب لى ظهر مِجَنِّه ، وسقانى دُرْدِيَّ دنِّه ، فتدارك ما أغفلَه ، واستردَّ ما بذلَه ، واضطُرِرْتُ إلى مفارقة الوطن ، والخروج عن العطن ، فتماسكت إشفاقا من مفارقة أولِ أرضٍ مسَّ جلدى ترابها ، وشُدَّتْ علىَّ التمائم بها(٢) . وجاءت أمورٌ لا تطاقُ كِبار ، فلما لم يمكن القرار ، ولم يبقَ إلا الفِرار ، قلت : ليس لى إلا أن أرمىَ بنفسى كلَّ مرمًى ، وأطرحَها كلَّ مَطْرَح .

لأُبلِـغَ عُذراً أو أنالَ رغيبةً ومُبلغُ نفسٍ عذرَها مثلُ مُنجِحِ (٣)

وسكنت إلى البيت المشهور :

---

(١) اقتبسه من قول أبى الطيب المتنبى وتصرف فيه :

ولقد بكيت على الشباب ولمتى مسودة ولماء وجهى رونق

(٢) اقتباس من قول رقاع بن قيس الأسدى :

بلاد بها نيطت على تمائمى وأول أرض مس جلدى ترابها

اللسان (نوط) وأمالى القالى (١ : ٨٣) .

(٣) اقتبسه كذلك من قول عروة بن الورد ، ورواه أبو تمام فى الحماسة (١ : ١٨٨) :

ومن يك مثلى ذا عيال ومقتراً من المال يطرح نفسه كل مطرح

ليبلغ عذراً أو يصيب رغيبة ومبلغ نفس عذرها مثل منجح

تلقَى بكلِّ بلادٍ إن حللتَ بها أهلاً بأهل وأوطاناً بأوطان[١]

وإن كان يقول العامَّة : ليس بين بلد وبلد نسب ، فخير البلاد ما حملك . فجعلت أستقرى البلادَ لأتيمَّمَ أوفقَها للمُقام ، وأعونَها على مقارَعة الأيام ، فكانت مصرُ مما وقع عليه اختيارى ، وصدَّقتْ حسنَ ظنى قبل اختبارى ، وسرتُ قاصداً إليها أعتسِف المجاهل والتنائف ، وأخوضُ المهالك والمتالف ، فطوراً أمتطى كلَّ حالكة الإهاب[٢] ، مسودَّة الجِلباب ، ثابتةٍ كصِبغة الشباب ، قد فُسِح ميدانُها ، ووُضع براحة الرِّيح عنانُها ، فجرت جرىَ الطَّرف الجموح ، وفاتت مدى الطَّرف الطموح ؛ وطوراً كلَّ نقبِ الأياطل ، كالهياطل[٣] ، سَبْط المشافر جعد الأشعار ، أحتذى العقيقَ ، أو الصِّنو الشقيق ، إن علا قلتَ ظليمٌ خاضب ، وإنْ هوَى قلت شهابٌ ثاقب ، يصل الذَّميل بالوِخاد[٤] ، وبلتهم التهائم والنِّجاد . فكم جِزْعِ وادٍ جزَعتُه ، وجلبابِ ليل ادَّرعته ، وكم برٍّ خرقت مَخارمه وفِجاجَه ، وبحرٍ شققت غواربَه وأمواجه ، وليس لى غيرَ مصر مقصدٌ ، ولا وراءها مذهَب ، ولا دونها للغنى متطلَّب .

وكم فى الأرض من بلدٍ ولكن عليكِ لشقوتى وَقَع اختيارى

فلما تغمَّرتْ ركابى من النيل ، واستَذْرَت بظلِّ المقطم ، ألقيتُ عصا التَّسيار ، واستقرَّت بى النَّوى ، وخَفَّت ظهورهن من الرِّحال ، وأرحتُهنَّ من الحَلِّ والتَّرحال ، وقلت : ضالَّتى المنشودة ، وبُغيتى المقصودة ، هاهنا ألبثُ وأقيم .

---

(١) البيت من أبيات فى الحماسة (١ : ٩٨) . وقبله :

لا يمنعنك خفض العيش فى دعة نزوع نفس إلى أهل وأوطان

(٢) يعنى السفينة .

(٣) إنما نقبت أياطله من إدمان السير . والنقب ، هنا : تنفط الجلد . والهياطل : جمع هيطل ، وهو الذئب ؛ يشبه به الفرس فى شدة العدو . وفى الأصل : « نقب الأياطيل كهياطيل » .

(٤) المسموع فى مصدر وخد هو الوخد والوخدان .

فلا أبرح ولا أريم، « بلدةٌ طيِّبة وربٌّ غفور » . وحيث التفتُّ فروْضةٌ وغدير، وخورنقٌ وسدير، وظِلٌّ ظليل، ونسيم عليل .

وكم تمنيت أن ألقى بها أحداً ... يُسلِي من الهم أو يُعدِي على النُّوَب(١)
فما وجدتُ سوى قوم إذا صدَقوا ... كانت مواعيدهم كالآل في الكذب(٢)
وكان لي سببٌ قد كنت أحسَبني ... أحظَى به فإذا دائي من السَّبب
فما مقلِّمُ أظفاري سوى قلمي ... ولا كتائبُ أعدائي سوى كتبي(٣)

ولم تطُلْ مدة اللُّبث حتى تبيَّنْتُ بما شاهدتُه أني فيها مبخوسُ البضاعة، منكوس الصناعة، مخصوصٌ بالإهانة والإضاعة؛ وأنّ عيشَها الرغدَ، مقصورٌ على الوغد، وعقابَها المرّ، موقوف على الحُرّ، فلو تقدّمتُ فعلمت ذلك لخفّ عنها مركَبي(٤) وصرفت إلى سواها وجهَ مطلبي، ولكان لي في الأرض مرمًى شاسع، ومُنتابٌ واسع، بل تثبّطت، حتى تورّطت، حتى عوملت بما يُعامَل به ذوو الجرائر والذنوب، وجرّعت من المذلة بأوفى ذَنوب . هـذا مع ما حبَّرته من المِدَح التي اشتهرت شهرةَ الصبّاح، وهبَّت هبوبَ الرياح، ولهِج بها الحادي والملاّح(٥) .

فسار بها من لا يسير مشمِّراً ... وغنَّى بها من لا يغـنِّي مغردَا

إلاّ أنّ الله جلت آلاؤه، وتقدَّست أسماؤه، تداركَ برحمته فأزال تلك المحنة بالمِنْحة، ونسخ تلك النقمة بالنعمة، وختم بالوصول إلى حضرة الملك الأجلّ أبي الطاهر يحيى بن تميم بن المعز بن باديس، الذي لم تزل حضرته مَصَاد

(١) في الأصل : « من النوب »، صوابه في ياقوت (٧ : ٨٠) والقفطي (٥٧) وابن أبي أصيبعة (٢ : ٦٠) . وقد اقتبس هذه الأبيات من شعر له قديم ، كما يفهم من رواية ابن أبي أصيبعة .
(٢) في الأصل : « كالألف » ، صوابه في ياقوت والقفطي وابن أبي أصيبعة .
(٣) في الأصل « كتائب أعواني » ، والصواب من المراجع .
(٤) في الأصل : « نخف » .
(٥) انظر مديحه للأفضل في ابن أبي أصيبعة (٢ : ٥٦) .

العُناة[١]، ومَراد العُفاة، ومجتمَع الفضائل، ومنتجَع الأفاضل، ومشرعَ الجود، ومشعَر الوفود. فلما استترت بجناحه، واستظهرت باستماحه، أعذب لى بسماحة الدهر جناه، واعتذر لى مما جناه، فكفّ دونى كفّه، وصرف عنى صَرفه.

كريم رفضت الناس لما بلغته ... كأنهمُ ما خفّ من زاد قادم

فكنت فيما مضيت عليه، وآلت حالى إليه، من إشراقها بعد الأفول، وإيراقها بعد الذبول، كنصل أهمَلَ أمرَه، من جهل قدره، ولما وقع إلى الخبير به صان صفحتَه وحدَّه، وحلّى حمائله وغِمدَه، ثم ادَّخره فيما يدّخر وأعدَّه، فإن انتضاه، يوماً ارتضاه، وإن جرّده، أحمَدَه، وإن هزّه، سرّه فى الضريبة حزّه.

ولكن أبى الله أن يكون الفضل إلا لمن نشأ فى مغارسه، ونجم فى منابته، ورَبِىَ فى حجره، وغُذِى بدَرّه.

فلم أستسغْ إلاّ نَداه فلم يكن ... ليعدِلَ عندى ذا الجنابَ جنابُ
فما كلُّ إنعام يخفُّ احتمالُه ... وإن هَطلت منه علىّ رباب[٢]
ولكن أجلُّ الصنع ما جلّ ربُّه ... ولم يأتِ بابٌ دونه وحِجاب
وما شئت إلا أن أدُلّ عواذلى ... على أنّ رأيى فى هواكَ صواب[٣]
وأُعلِمَ قوماً خالفونى فشرّقوا ... وغرّبتُ أبى قد ظفرت وخابوا

والأَولى أن أضربَ عمّا سلف، وأتركَ مافرَط، وآخذَ فيما أجريت إليه وقصدته، ونحوته واعتمدته، ممّا آثرت به الحضرة السامية[٤] ـ أدام الله

---

(١) المصاد: موضع الصيد. والعناة: جمع عان، وهو الأسير.

(٢) الرباب: سحاب يركب بعضه بعضاً، الواحدة ربابة. وفى الأصل: «لدى ولامنه على»، صوابه من ياقوت (٧: ٥٩)، وقافيته فيه «سحاب».

(٣) البيت وتاليه للمتنبى فى ديوانه (١: ١٢٧) برواية العكبرى.

(٤) فى الأصل: «الشامية».

سموّها ـ من وصف ما عاينتُه من أرض مصر وعاينته ، والاقتصارِ على الذى رأيته دون مارويته ، فليس من يقول : علمتُ هذا من طريق العلم والسماع ، كمن يقول : تحققتُه بالمشاهدة والاطلاع ، فإنّ ذا اللب الأمينَ لا ينخدع بمحال ، ولا يرضى بانتحال .

* * *

وأنا أبتدئ بذكر هذه البلاد وموقعها فى المعمورة ومجرى النيل منها ، وغَنائه فيها ، وأشفع ذلك بنبذ من ذكر أحوال أهلها فى أخلاقهم ، وسيَرهم وعاداتهم ، وما يتصل بذلك وينْجرُّ معه ، ويجىء بسببه ، ويدخل فى تضاعيفه . وهأنذا آخذ فى ذلك ، وبالله أستعين ، وعليه التوكل .

* * *

(١)أرض مصر بأسرها واقعةٌ من المعمورة فى قسمى الإقليم الثانى والإقليم الثالث ، ومعظمها فى الثالث .

وحكى المعتنون بأخبارها وتواريخها أن حدها فى الطول(٢) من مدينة برقة التى فى جنوب البحر الرومى ، إلى أيلة من ساحل الخليج الخارج من بحر الحبشة والزنج والهند والصين . ومسافة ذلك قريبٌ من أربعين يوما .

قالوا: وحدُّها فى العرض من مدينة أسوان وما سامتها من الصعيد الأعلى المتاخم لأرض النوبة ، إلى رشيد(٣) وما حاذاها من مساقط النيل فى البحر الرومى ، ومسافة ذلك قريب من ثلاثين يوماً . ويكتنفها من مبدئها فى العرض إلى منتهاها جبلان [أحدهما فى الضفة الشرقية من النيل ، وهو المقطم ، والآخر فى الضفة الغربية منه . والنيل منْسرب فيما بينهما . وهما(٤)] أجردان غير شامخين ، يتقاربان

(١) الكلام من هنا إلى كلمة « الاستقامة » نقله المقريزى فى (١ : ١٥ ـ ١٦) .
(٢) هذا تسجيل تاريخى بلدانى لما كانت عليه حدود مصر فى عهده .
(٣) فى الأصل : « لأرض الشام ورشيد » ، صوابه من الخطط .
(٤) التكملة من الخطط .

جدًّا فى وضعيهما ، من لدنْ مدينة أسوان إلى أن ينتهى إلى الفسطاط ، فثَمَّ تتسع مسافةُ ما بينهما وتنفرج قليلا ، ويأخذ المقطم منهما مشرقا والآخر مغربا على وِراب فى أخذيهما[١] وتفريج[٢] فى مسلكيهما ، فتتسع أرض مصر من الفسطاط إلى ساحل البحر الرومى الذى عليه الفرماء[٣] وتنيس ودمياط ورشيد والإسكندرية ، وهناك تنقطع فى عرضها الذى هو مسافة [مابين] أوغلها فى الجنوب و [أوغلها] فى الغرب والشمال . وإذا ما مُسحت بالطريق البرهانية فى طريق هذه المسافة [من الأميال[٤]] لم تبلغ ثلاثين ميلا[٥] ، بل تنقص عنها نقصاً ماله قدر ، وذلك لأن فضل ما بين عرض أسوان التى هى أوغلها فى الجنوب وعرض مدينة تنيس التى هى أوغلها فى الشمال ، تسعة أجزاء ونحو سدس جزء من الأجزاء التى بها تحيط الدائرة العظمى ، [وهى[٦]] ثلثمائة وستون جزءا . وليس بين طوليهما فضلٌ يقع بسببه فى هذا الحساب ماله قدرٌ يعتدّ به . فإذا ضاعفنا هذا العدد بما يخصُّ الدرجةَ الواحدة من محاذاة ذلك من الأميال ، وذلك ستة وخمسون ميلا وثلثا ميل على مادل عليه البرهان ، كان ذلك[٧] نحو خمسمائة وعشرين ميلا بالتقريب ، وذلك مسافة سير عشرين يومًا أوقريب من ذلك[٨] . وفى هذه المدة من الزمان يقطع السُّفَّار أبدا مابين هذين البلدين بالسير المعتدل فى أكثرَ من ذلك قليلا ، لما فى الطريق من التعريج وعدم الاستقامة[٩] .

---

(١) فى الخطط : « مأخذيهما » .
(٢) فى الأصل : « وتعريج » ، صوابه فى الخطط .
(٣) فى الأصل : « الهرمان » ، وتصحيحه من الخطط .
(٤) هذه التكملة والتى قبلها من الخطط .
(٥) فى الأصل : « يوماً » ، ووجهه ما أثبت من الخطط .
(٦) ليست فى الأصل .
(٧) فى الأصل : « من ذلك » .
(٨) نقل عنه فى النجوم الزاهرة (١ : ٣٦) أنها ثلاثون يوما
(٩) إلى هنا ينتهى نقل المقريزى .

وليس تشتمل أرضُ مصر بعد الفسطاط الذى هو مقرُّ الملك وكرسيُّ الدولة، على مدائنَ لها قدرٌ فى كثرتها ولا فخامتها ، لكن أجلُّ مدائنها وأفخرها أما فى الجهة الشمالية من الفسطاط فالإسكندرية وتنيس ودمياط ، وأما فى الجهة الجنوبية إلى أقصى الصعيد فقوص وقفط . فهذه صفة أرض مصر على الجملة .

* * *

[1]وأما النيل فينبوعه من وراء خط الاستواء، من جبل هناك يعرف بجبل القمَر ، فإنه يبتدئ بالتزيُّد فى شهر أبيب[2] ، الذى هو بالرومية يولية[3] . والمصريون يقولون : « إذا دخل أبيب ، كان الماء دبيب » . وعند ابتدائه فى التزيد[4] تتغير جميعُ كيفياته وتفسُد ، والسّبب الموجب لذلك مُرورُه بنقائع مياهٍ آجنة[5] يخالطها فيجتلبها ، ويستخرجها معه ويستصحبها ، إلى غير ذلك مما يحتمل[6] . فتصير مثل الحال التى وصفه بها الأمير تميم بن المعز لدين الله :

أما ترى الرعدَ بكى فاشتكى والبرقَ قد أومض فاستضحكا[7]
فاشربْ على غيمٍ كصِبْغ الدُّجى أضحكَ وجهَ الأرضِ لمّا بكى[8]
[وقد حكى العودُ أنينَ الهوى لكنّه جوّدَ فيما حكى][9]

(١) من هنا يبتدئ نقل آخر للمقريزى فى (١ : ٥٩) .
(٢) فى الخطط : « التزايد » . والتزيد والتزايد بمعنى .
(٣) ما بعد « أبيب » ليس فى الخطط . وفى الأصل : « قوليه » .
(٤) فى الخطط : « التزايد » .
(٥) فى الأصل : « بنقاء مع مياه آجنة » ، والصواب فى الخطط .
(٦) الكلام والشعر بعد هذا لم يورده المقريزى .
(٧) فى الأصل: «الجو من إظلامه قد اشتكى»، ولا يستقيم به الوزن، إذ هو من السريع. وأثبت ما فى ديوان تميم الورقة (١٢٠) من مصورة دار الكتب ذات الرقم (١٦٠٢٥ ز) ، وهذه الرواية هى التى ذكرها الثعالبى فى يتيمة الدهر (١ : ٣٤٩) الطبعة الأولى .
(٨) فى الأصل : «يشبه التحقيق كصبح» تحريف، وأثبت ما فى الديوان ويتيمة الدهر .
(٩) إثبات هذا البيت من ديوان تميم .

وانظرْ لماء النيل في مدِّه كأنماء صُندِل أو مِسْكَا

أو كما قال غيره من أهل العصر ، من قصيدة يصف فيها أرض مصر :

ولله مجرى النيل منها إذا الصَّبا أرتنا به في مَرِّها عسكرًا مَجْرا[(١)]

فشَطٌّ يهزُّ السمهرِيَّةَ ذُبَّلا وموجٌ يهزُّ البيضَ هِنديَّةً بُترا

إذا مَدَّحا كىَ الورد غضًّا وإن صفا حكى ماءه لونا ولم يَعدُه نشرا[(٢)]

وهذا نظير ما أنشدنيه عبد الله بن سريَّة لنفسه :

راقني النهرُ صفاءً بعد شوقي لصفائه

كانَ مثل الورد غضًّا ثم قد صار كمائه

ولأبي بكر الصَّنَوبري[(٣)] في مثل هذا المعنى :

ولقد طربتُ إلى الفُرا تِ بكلِّ ذي كرمٍ ومجدِ

والشمسُ عند غروبها صفراء مذهبةُ الفِرِند

والماء حاشيتاه خضـ ـراوانِ من آسٍ ورَند[(٤)]

تحبوه أيدي الريح إن هبّت على قربٍ وبُعدِ

بطرائفٍ من فضة وطرائفٍ من لازَوَرد

والسفن كالطير انبرت في الجوّ من مَثْنَى وفرد

حتّى إذا جزرَ الفرا تُ مضى وأعقبه بِدّ[(٥)]

---

(١) يقال للجيش العظم : مجر ، لثقله وضخمه .

(٢) حكى ماءه ، أي أشبه ماء الورد في لونه . وفي الأصل: «حكى ماؤه نافلم» تحريف.

(٣) هو أبو بكر أحمد بن محمد بن الحسن بن المرار، المعروف بالصنوبري الحلبي . قال السمعاني في الورقة (٣٥٥) : نسبة إلى الصنوبر . وانظر تعليلا آخر في مختصر تاريخ دمشق (١ : ٤٥٦) . ووفاته سنة ٣٣٤ هـ . كما في شذرات الذهب . وانظر فوات الوفيات (١ : ٧٧) .

(٤) الرند : شجر من أشجار البادية طيب الرائحة ، ويقال للآس « رند » . وفي الأصل: « وورد » ، ولا وجه له .

(٥) في الأصل : « بورد » ، ووجهه ما أثبت .

أبصـــرتَه وكأنه ملقًى عليـه رداء وردِ
متململاً كالصبّ أو ذِنَ من أحبّته بصَـدّ
وكأنّما بحَشاه ما بحشاىَ من قلقٍ ووَجد

وقال تميم المعز، وأحسن التشبيه[1] :

يوم لنا بالنـيل مختصَرُ وبكلّ يوم ٍ مسرةٍ قِصَرُ
والسُّفْنُ تصعدُ كالخيول بنا فيه وجيشُ الماء ينحدرُ
فَكأنّما أمواجُه غُرف وكأنما داراته سُرر

وقال محمد بن الحسن :

النهر مكسوٌّ من الأزهار بردًا أنيقاً مثل ثوب . . .
. . . . يجرى بمسك أو بذوب نضار[2]
وإذا استقام رأيت صفحة مُنْصُل وإذا استدارَ رأيت عَطف سِوار

وقال أبو الحسن محمد بن الوزير، فى تدرُّج زيادة الماء إصبعاً إصبعاً، ومنفعةِ ذلك التدرُّج :

أرى أبدًا كثيرًا مِن قليل وبدرًا فى الحقيقة مِن هِلال
فلا تعجبْ فكلُّ قليلِ ماء بمصرَ مسبِّب لخليج مالِ
زيادةُ إصبعٍ فى كلّ يوم زيادةُ أذرع فى حُسن حال

فإذا كان فى الخامسَ عشرَ ذراعًا وزاد من السادسَ عشر إصبعاً واحدة كُسِر الخليج[3] .

ولكسره يوم معدود، ومَقام مشهود، ومُجتمَع غاصٌّ، يحضُره العامّ والخاص . وإذا كُسِر فتحت التُّرع ـ وهى فوّهات الخُلجان ـ ففاض الماء

(١) الأبيات التالية لم أجدها فى ديوان تميم .

(٢) فى الأصل : « يجرى لسك ذوب نضار » .

(٣) فى الأصل : « نفعت نفعاً عظيما » ،وأثبت ماعند المقريزى فى (١ : ٥٩) .

وساح، وعم الغيطانَ والبطاح[١]، وانضمّ الناسُ إلى أعلى مساكنهم من الضِّياع والمنازل، وهى على آكام وربًى لا ينتهى إليها الماء، ولا يتسلط السيل عليها، فتعود عند ذلك أرض مصر بأسرها بحرًا غامرًا لما بين جبليها المكتنفين لها. وتثبت على هذه الحال ربما يبلغ الحدَّ المحدود، فى مشيئة الرب المعبود. وأكثر ذلك يحوم حول ثمانيةَ عشرَ ذراعًا، ثم يأخذ عائدًا فى منصبه، إلى مجرى النيل [ومسربه، فينضب أوّلاً عما كان[٢]] من الأرض مشرفًا عاليًا، ويصير فيما كان منها متطامنًا[٣]، فيترك كلَّ قرارة كالدرهم، ويغادر كلَّ تلعة كالبُرد المسهَّم. وفى هذا الوقت من السنة تكون أرض مصر أحسن شىء منظرًا، ولا سيما متنزَّهاتها المشهورة، وديارتها المطروقة، كالجزيرة، وبركة الحبَش[٤] وماجرى مجراها من المواضع التى يطرقها أهل الخلاعة، وينتابها ذوو الأدب والطرب.

واتّفق أن خرجنا فى مثل هذا الزمانِ إلى بركة الحبَش، فافترشْنا من زهرها أحسنَ بساط، واستظللنا من دوحها بأوفى رواق، وطلعت علينا من زُجاجات الأقداح شموسٌ فى خِلَع البدور، ونجومٌ[٥] بالصفاء تنور، إلى أن جرى ذهبُ الأصيل على لجين الماء، ونشبت نار الشفق بفحمة الظلماء، فقال فى ذلك بعضُنا[٦]

---

(١) فى الخطط: « وغمر القيعان والبطاح ».

(٢) مكان هذه التكملة التى أثبتها من الخطط بياض فى الأصل.

(٣) بدل هذه الجملة فى الأصل « ... متحفظ ... نسطاميا»، ولكماله وصوابه من الخطط.

(٤) كانت فى ظاهر مدينة الفسطاط من قبليها فيما بين النيل والجبل. وسميت بركة الحبش نسبة إلى قتادة بن قيس بن حبشى الصدفى، ممن شهد فتح مصر، وكانت له حدائق بجوار هذه البركة تعرف بالحبش فنسبت البركة إليها. وهذه البركة موقعها اليوم منطقة الأراضى الزراعية التابعة لزمام قرية دير الطين، وجزء عظيم من الأراضى الزراعية التابعة لقرية البساتين. انظر الخطط (٢ : ١٥٢) والنجوم الزاهرة (٥ : ١٤).

(٥) فى الأصل: « وجوم ».

(٦) يعنى نفسه. وجاء فى الخطط (٢: ١٥٥) : « وقال ابن سعيد فى كتاب المغرب : « وخرجت مرة حيث بركة الحبش التى يقول فيها أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسى عفا الله عنه ». وأنشد الأبيات التالية. وجاء فى (٢ : ١٦٠) : « بئر أبى سلامة وتعرف ببئر الغنم، وهى من قبلى النوبية، وموضعها أحسن موضع فى البركة، وهى التى عنى أبو الصلت أمية بن عبد العزيز بقوله ». وأنشد الأبيات، ورواها ياقوت فى ترجمة أمية منسوبة إليه.